

استفسر المُفْتِشُ مِنْ فَلَاحٍ كَانَ الشَّارِعَ مِنَ الْمَدْرَسَةِ. كَانَتْ الشَّوَارِعُ مَلِيئَةً بِالْمَطَبَّاتِ وَالطَّيْنِ، وَتَسَرَّبَ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمِيَاهِ النَّازِحَةِ مِنَ الْبُيُوتِ الطَّيْنِيَّةِ. فَمَا كَانَ مِنَ الْمَفْتِشِ إِلَّا أَنْ سَارَ عَبْرَ دَرْبٍ رَطْبٍ بَيْنَ حَقْلَيْنِ. وَعَلَى بُعْدٍ بَصُرَ بِسَائِقٍ دَرَجَةٍ مَتَجِّهَا نَاحِيَتَهُ، وَمَا إِنَّ اقْتَرَبَ مِنْهُ حَتَّى تَوَقَّفَ سَائِقُ الدَّرَجَةِ، وَنَزَلَ عَنْهَا قَبْلَ أَنْ يَفْقَاحَ بِاحْتِرَامٍ لَهُ: - أُنْزِي شَجَرَةَ الشَّيْشَامِ تِلْكَ. قَالَ الدَّرَاجُ مُشِيرًا إِلَى شَجَرَةٍ بَعِيدَةٍ. وَغَمَرَتِ الْقُرُوبُ مَوْجَةً زَهْوٍ إِذْ إِنَّهُ قَدَّرَ لَهُ أَنْ يَمُدَّ يَدَ الْعَوْنِ إِلَى سَيِّدٍ جَلِيلٍ مِنَ الْمَدِينَةِ، إِذْ تَخِيلَ نَفْسَهُ وَمُذِيرَ الْمَدْرَسَةِ وَطَلَبَهَا أَوْ أَيَّ عَابِرٍ قُرُوبٍ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ بِصُحْبَةِ ذَلِكَ الْبَاشَا. لَقَدْ أَضْحَكَ عَمَلِيَّةُ الْبَحْثِ عَنِ الْمَدَارِسِ عَبْرَ الْقَطَاعَاتِ اسْتِنَازًا لَصَبْرِهِ وَجَلْدِهِ، فِي الْمَدِينِ الْقَدْرَةِ وَالْأَقَالِيمِ النَّائِيَةِ وَالْمَرَكَزِ الْمُثْقَلَةِ بِالدُّخَانِ وَالْغُبَارِ، وَفِي الْقُرَى النَّائِيَةِ حَيْثُ الطَّرَقَاتُ ضَيِّقَةٌ لَا يُمْكِنُ لِسَيَّارَتِهِ «الْجَيْبِ» أَنْ تَسِيرَ عَبْرَهَا. لَكِنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ بِهَذِهِ السَّهُولَةِ، فَكُلُّ مَدْرَسَةٍ كَانَتْ مَنِيْعٌ وَجَعٌ مَحْضٍ؛ مَا الَّذِي بَوَسَّعَهُ أَنْ يَعْمَلَ؟ تَوْصِيَّاتٌ وَتَوْصِيَّاتٌ تَرْفُضُهَا إِدَارَةُ التَّخْطِيطِ وَالتَّنْمِيَةِ تِلْكَ الَّتِي تُخَطِّطُ قَلِيلًا وَتُطَوِّرُ أَقَلَّ مِنَ الْقَلِيلِ!.. فِيمَا كَانَتْ الْحَشَرَاتُ تَطِيرُ فَوْقَهُ أَوْ تَزْحَفُ عَلَى سَطْحِهِ، وَعِنْدَمَا دَنِيََا مِنْهَا ارْتَفَعَتْ فَجَاءَتْ وَقَدْ عَلَا طَيْنُهَا. وَرَوَّحَ مُفْتِشُ الْمَدَارِسِ عَلَى وَجْهِهِ طَارِدًا إِيَّاهَا فِيمَا كَانَ الْفَلَّاحُ يَسِيرُ دَافِعًا دَرَجَتَهُ بِخُطَوَاتٍ وَاسِعَةٍ رَشِيقَةٍ، وَأَجْرَاسُهَا تَهْتِكُ أَسْتَارَ السُّكُونِ. وَوَجَدَ الْمُفْتِشُ صُعُوبَةً فِي السَّيْرِ بِمَحَاذَاتِهِ. وَمَرًّا بِحَقْلٍ ذُرَّةٍ فِي أَكْوَازِهَا لَمَّا تَزَلَّ، وَخَلْفَ الْحَقْلِ سَمَقَتْ شَجَرَةُ «الشَّيْشَامِ»! كَانَتْ شَجَرَةً ظَلِيلَةً عَلَى حَافَةِ حَقْلٍ حُرْثَ مُنْظَرًا طَوْرًا نَثْرَ الْبَذْرِ، قَبْلَ حَرْثِ الْأَرْضِ عَلَى أَقْلٍ تَقْدِيرٍ! - ثُمَّ؟ إِنَّ الْمُعَلِّمَ يَنْقُلُهَا مَعَهُ، وَأَنْتَى ذَهَبَ ارْتَحَلَتْ مَعَهُ. أَنْتَى. فَظَلَّلَهُمَا بِيَدَيْهِ، وَنَظَرَ إِلَيْهِمَا: - أَيْنَ الْمَدْرَسَةُ يَا صَاحِبَ؟ هُنَا أَسْتَاذٌ مِنَ الْمَدِينَةِ لِيَرَاهَا. لَقَدْ رَأَيْتُهُمْ عَلَى مَا أَظُنُّ مُتَّجِهِينَ إِلَيْهِ هَذَا الصَّبَاحَ. كَانَ حَقْلُ الْقَصَبِ كَثِيفًا غَنِيًّا بِالْمَحْصُولِ، وَحِمَارٌ دَاكِنَةٌ، وَنَظَرًا حَوْلَهُمَا. بَاتَ الْأَمْرُ مُمِلًّا. - رُبَّمَا كَانَتْ فِي النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى! - اسْمَعْ! انْهَبْ أَنْتَ وَتَحَرَّرْ عَنْ ذَلِكَ، وَعِنْدَمَا تَجِدُ الْمَدْرَسَةَ أَخْبِرْنِي. وَطَرَحَ الرَّيْفِيُّ دَرَجَتَهُ جَانِبًا، أَمَّا مُفْتِشُ الْمَدْرَسَةِ فَقَدْ جَلَسَ مُجِيلٌ بِصَرِّهِ فِي الْأَرْضِ السَّمَرَاءِ، وَقَدْ تَفَاوَتَتْ دَرَجَاتُهُ وَظِلَالُهُ حَتَّى إِذَا مَا لَامَسَ طَرَفَ السَّمَاءِ كَانَ فِي أَوْهَاهَا. وَلَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ غَيْمَةٍ فِي السَّمَاءِ. وَحَلَقَتْ بَعْضُ الْحِدَا عَالِيًا فِي كَسَلٍ فِيمَا عَبَرَتْ فَوْقَهُ عَصَافِيرُ جَذَلَى مُتْرِمَةً. لِأَبَدٍ وَأَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا فِيمَا يَخْتَصُّ بِذَلِكَ! إِنَّهُ يَجْلِسُ فِي مَكْتَبِهِ، وَيَجْلِسُ فِي سَيَّارَتِهِ الْجَيْبِ، بِالْجُلُوسِ فِي الْكُرْسِيِّ الْوَحِيدِ فِي الْمَدَارِسِ الَّتِي يَزُورُهَا 5. - لَقَدْ وَجَدْتُهَا! عَلَى أَنْ مُفْتِشَ الْمَدَارِسِ تَرَدَّدَ لَوَهْلَةٍ، قَدْ يَتَعَرَّضُ لِلسَّرْقَةِ فِي ذَلِكَ الْحَقْلِ الْكَثِيفِ وَلَا شَاهِدَ هُنَاكَ. وَرُؤُوسُ الْقَصَبِ الْخَضِرُ تُجَرَّحُ بِدِيهِ وَوَجْهَهُ. وَتَنِي ذِرَاعِيهِ فَوْقَ رَأْسِهِ، وَتَبِعَ السُّوقَ الْمَهْتَزَّةَ الْمُفْعَمَةَ بِالضَّجِيجِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى وَسْطِ الْحَقْلِ، وَهَنَّاكَ. وَفِي بُقْعَةٍ قُصِّتْ أَعْوَادُ الْقَصَبِ فِيهَا فَبَدَتْ مِلْسَاءً، لَمْ يَكُنْ تَحْتَهُمْ بِسَاطٌ يَقْبِهِمْ صَلَابَةً الْأَرْضِ. كَانَ الْهَدْوُ يَلْفُهِمْ بِرْدَاءٍ يَبْعَثُ الرَّاحَةَ فِي النَّفُوسِ، وَاهْتَزَّتِ الرُّؤُوسُ جَمَاعِيًّا فِي مُحَاوَلَةٍ لِحِفْظِ جَدَاوِلِ الضَّرْبِ فِيمَا انْحَنَى قِسْمٌ مِنْهُمْ عَلَى أَلْوَاغِهِمْ يَسْتَذَكِرُونَ مَا دُونَهَا. وَدُعِمَتْ أَطْرَافُهُ بِشَرَائِحَ حَدِيدِيَّةٍ تُبْتَتُّ فِيهِ بِمَسَامِيرَ، وَنَهَضَ مُعَلِّمُ الصَّبْيَانِ فَجَاءَ وَقَدَّمَهُ تَبَحُّثٌ - وَقُوفٌ! صَاحَ الْمُرْشِدُ أَمْرًا بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ. وَهَبَّ التَّلَامِيذُ وَقُوفًا. مَاسَحِينَ مَا عَلِقَ بِظُهُورِهِمْ مِنْ غُبَارٍ. وَاسْتَغْرَقَ الْمُعَلِّمُ بَعْضَ الْوَقْتِ كَيْمَا يَتِمَّاكَ نَفْسُهُ فَقَدْ أَذْهَلَهُ حُضُورُ الْمُفْتِشِ، وَنَفَضَ الْغُبَارَ عَنِ الْكُرْسِيِّ الَّذِي تَرَأَسَ بِهِ طَلِبَتَهُ، صَاحَ الْمُعَلِّمُ! وَابْتَلَعَ الْمُعَلِّمُ رِيْقَةً بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ: - نَعَمْ سَيِّدِي. - مِنَ الْمُقَرَّرَاتِ. قَالَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَسْلِمَ الْمُفْتِشُ مَجْمُوعَةً مِنَ الْكُتُبِ الْمُغْبِرَةِ الرَّثَةِ كَانَتْ تَحْتَ رِجْلِ الْكُرْسِيِّ. طَالِبًا أَنْ يَقْرَأَ. - كَمْ فَصْلٌ لَدَيْكَ هُنَا؟ وَتَبَيَّنَ لِلْمُفْتِشِ أَنَّ مَا خَالَهُ مَجْمُوعَةٌ وَاحِدَةٌ كَانَتْ فِي الْوَاقِعِ سِتًّا! سَيِّدِي! قَالَ الْمُعَلِّمُ مُشِيرًا بَعْصَاهُ. قَالَ الْمُفْتِشُ أَمْرًا أَحَدَهُمْ. لَمْ يُخْطِئِ الْبَتَّةَ، وَبَدَأَ جَلِيًّا أَنَّ الْمُعَلِّمَ قَدْ اسْتَرَدَّ كَثِيرًا مِنْ ثِقَتِهِ بِنَفْسِهِ تَبَعًا لِذَلِكَ. - اسْأَلْ فَصْلَ آخَرَ، وَطَلَبَ الْمُفْتِشُ مِنَ الْفَصْلِ الثَّانِي إِجْرَاءَ بَعْضِ عَمَلِيَّاتِ الْجَمْعِ فَأَتَمَّهَا مَعْظَمُهُمْ بِطَرِيقَةٍ صَحِيحَةٍ. وَقَرَأَ طَالِبَانِ مِنَ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ الْحُرُوفَ الْأَبْجَدِيَّةَ دُونَ خَطِّهَا بِالطَّرِيقَةِ الْإِيقَاعِيَّةِ الَّتِي سَاعَدَتْ عَلَى إِجَادَتِهَا صَمًّا، أَوْ كَانَ ضَمْنُ الْمَقْرَرِ، وَهُوَ مَا يَشْكُ فِيهِ فَذَاكَ أَرُوعُ. - وَقُوفٌ. أَمَّا الْمُعَلِّمُ فَتَبِعَهُ حَامِلٌ عَصَاهُ. سَتَحْدُثُ الْقَرْيَةُ وَمَا جَاوَرَهَا عَنْ ذَلِكَ الْحَدَثِ أَبَاقًا عَدَّةً. لِمَ لَا تَفْعَلُ؟ - كُلٌّ. لَا أَحَدٌ يَرْضَى أَنْ يُعْطَيْنَا غُرْفَةً وَاحِدَةً سَيِّدِي! إِنَّهُمْ لَا يَرِيدُونَ مَدْرَسَةً هُنَا، لَقَدْ أَوْضَحُوا ذَلِكَ مَرَّاتٍ عَدَّةً، إِذْ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَرُونَ فِي التَّعَلُّمِ مَضِيعَةً لِأَوْقَاتِ الْأَوْلَادِ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ بِأَنْ عَلَيْهِمْ إِزْجَاءُ الْوَقْتِ فِي عَمَلٍ نَافِعٍ مُفِيدٍ بَدَلًا مِنَ اللَّهْوِ الدَّرَاسِيِّ! وَبَاقِي حُرِّيَّتهمُ أَنْ يَسَاعِدُوا آبَاءَهُمْ فِي الْحَقُولِ وَرِعِي الْمَاشِيَةِ - لَكِنَّ السَّيِّدَ «شَادِرِي عَلِيَّ مُحَمَّدَ» الزَّعِيمَ. هُوَ الْوَحِيدُ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَيْنَا بِعَيْنِ التَّفَهُّمِ وَالْعُطْفِ يَاسَيِّدِي! إِنَّهُ يَدْرِكُ الْأَهْمِيَّةَ الْقَصْوَى لِلتَّعْلِيمِ، لَكِنَّهُ مَنَحَنَا ظِلَّ شَجَرَةِ الشَّيْشَامِ الَّتِي يَمْلِكُهَا لِنَتَفَيَّاهُ طَوَالَ الْمَوْسَمِ، حَتَّى حَلَّ أَوَانُ حَرْثِ أَرْضِهَا، - نَعَمْ، سَيِّدِي، سَيِّدِي، وَاسْتَغْرَقَ الْعَمَلُ مَنَا أَبَاقًا ثَلَاثَةً، حَتَّى طَلَبَةُ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ عَمِلُوا مَعَنَا بِكُلِّ دَأْبٍ مِنَ الثَّامِنَةِ صَبَاحًا حَتَّى صَلَاةِ الْمَغْرَبِ، وَبَعْدَهَا كَانَ لَزَامًا أَنْ نَتَوَقَّفَ عَنِ الْعَمَلِ لِحُلُولِ الظَّلَامِ. لَقَدْ قَالَ السَّيِّدُ «شَادِرِي» إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَتَمَنَّيَ التَّعْلِيمَ، وَنَقْدَرَهُ، كَانَتْ ثَمَّةُ دُمُوعٍ تَتَرَقَّرُ فِي مَقْلَتَيْهِ، وَاعْتَمَرَ عِمَّتُهُ ثَانِيَةً، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الْبَعِيدِ مُشِيحًا بِبَصَرِهِ، وَشَرَعَا يَمْشِيَانِ جَنِبًا إِلَى جَنِبٍ؛ غُرْفَةً وَاحِدَةً فَقَطْ!.. فَإِنْ لَمْ تَكُنْ غُرْفَةً فَقَطْعَةً صَغِيرَةً مِنَ الْأَرْضِ وَسُوفَ نَبْنِيهَا. سَيِّدِي، وَبَاقِي لَا أَحَدٌ يَرِغِبُ فِي وَجُودِ مَدْرَسَةٍ هُنَا، هُنَاكَ أَرْضٌ فِي النَّاحِيَةِ الْمَهْجُورَةِ مِنَ

القرية سوف أكون سعيداً بإنشاء مدرسة هناك، لكن مراقب المدارس كان يلوذ بالصمت! صمت مطبق رهيب! يكاد يرى الاقتراح يرفض⁹. هو واثق من ذلك؛ إذ إن الحكومة لم تكن تسمح بتخصيص أرض لمدرسة ابتدائية. فكيف سيتغير ذلك الآن؟ القانون هو القانون. قطعة أرض صغيرة. كم من المعلمين كانوا يمثل إخلاص هذا المعلم وتفانيه! كم منهم كان يهتم بذلك؟ وكم منهم كان بإمكانه مواجهة لامبالاة كهذه؟ كل لم يستطع استرجاع حالة واحدة طيلة سني عمله الثلاث